فخار منطقة القبائل الكبرى
"معاتقة نموذجاً"

د.خديجة نشار•

تعتبر الصناعة الفخارية، إحدى أقدم الحرف التقليدية التي لقيت عناية خاصة عبر العصور المختلفة و هذا، منذ ما قبل التاريخ مرورا بالعصور القديمة الإسلامية إلى يومنا هذا.

تزخر الجزائر بعدة مناطق لإنتاج الفخار و من بينها منطقة القبائل الصغرى، و القبائل الكبرى و منطقة الأوراس و الورشنيس، و منطقة الشنوى و مدينة ندرومة في الغرب.

تعتبر هذه الصناعة من خصوصيات أهل الريف و بالأخص المرأة الريفية.

لقد وقع اختيارنا على منطقة "معاتقة" بولاية تيزي وزوأي القبائل الكبرى شرق مدينة الجزائر، التي لازالت تفتخر إلى يومنا هذا بهذه الصناعة العريقة التي توارثتها العديد من العائلات في هذه المنطقة و المناطق الريفية الأخرى.

تشتهر منطقة القبائل الكبرى بجبالها الشامخة المعروفة "بجبال جرجرة" والتى تبلغ مساحتها حوالي ٣٥٦٨ كلم مربع يحدها من الغرب ولاية بومرداس، من الجنوب ولاية البويرة و من الشرق ولاية بجاية، و من الشمال البحر الأبيض المتوسط.

من أهم المناطق التي تشتهر بصناعة الفخار، منطقة "معاتقة" التي تقع على بعد ٢٠كيلومتر جنوب غرب الولاية، بحيث يحدها من الشمال منطقة تيرميتين(TIRMITINE)، و من الشمال الشرقي "تيزي أوزو"(TIZI OUAZOU)،و من الجنوب "بوغني"(BOGHNI)و من الغرب"عين الزاوية"(AIN ZAOUIA)و هي دائرة تحتوي على بلدتين: "معاتقة" و"سوق الاثنين" تقع على واجهة جنوب مرتفعات القبائل أي سفح جبال جرجرة.

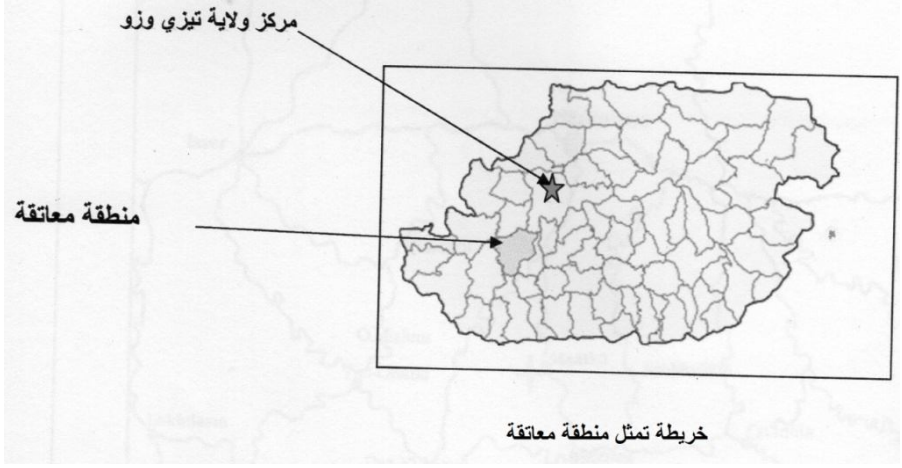

خريطة تمثل منطقة معاتقة

•أستاذة محاضرة /معهد الآثار جامعة الجزائر٢

صناعة الفخار في منطقة معاتقة:

كانت نساء القرية، يشرعون في صناعة الفخار عند نهاية فصل الربيع. و قبل الشروع في الحديث عن هذه الصناعة الحرفية لفخار المنطقة، تجدر الإشارة إلى أن هذه الحرفة تحتكرها النسوة اللواتي ينشطن في هذا المجال، كما تغلب على هذه الصناعة طريقة تشكيل الآنية بمختلف أنواعها و وظائفها باليد.

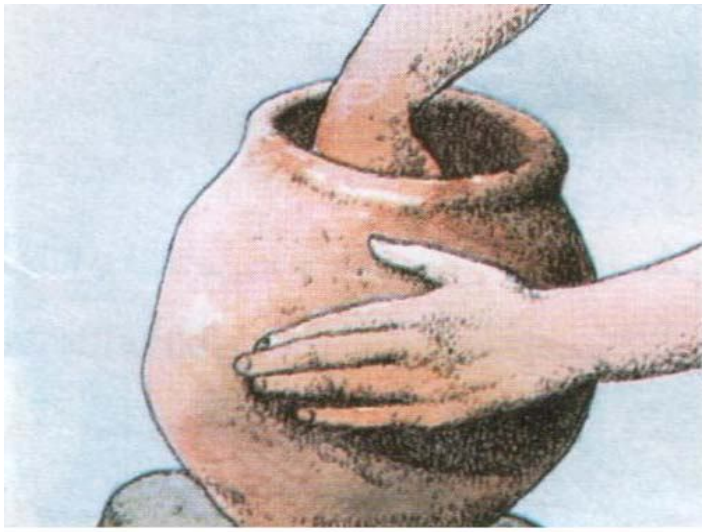

التشكيل باليد على الدولاب

كانت مادة الصلصال تجلب في الغالب من المناطق المجاورة لجبل "معاتقة" و كانت هذه المادة الأولى يطلق عليها باللهجة الأمازيغية "ثلخت".

و قبل أن تصبح العجينة صالحة للتشكيل فإنها تمر بمراحل عدة بدءا بعملية تنظيف الطينة إلى غاية تحضيرالعجينة و عمل الكميات المناسبة لكل شكل من أشكال الآنية و هذا حسب الأواني المراد الحصول عليها.

1

2

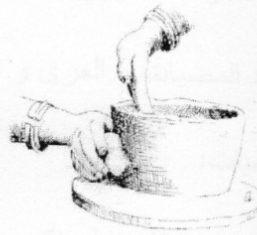

3

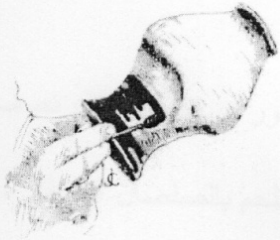

4

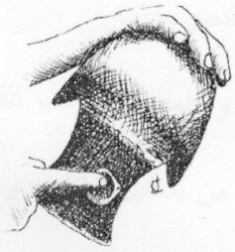

5

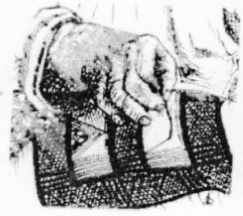

6

اللوحة رقم 1 : **عملية انجاز الآنية**

1) تلحيم القاعدة مع الفتيل 2) تشكيل الانية 3) التمليس بالعجرة 4) وضع الطلاء

5)التهذيب النهائي بالقوقعة 6) زخرفة الآنية

عن Couranjou (J)، ص42.

إن الطريقة التي يغلب استعمالها من طرف الحرفية في الجزائر بصفة عامة، وفي هذه المناطق الريفية، والجبلية بصفة خاصة، هي تقنية الحبال الطينية أو القضبان(Colombin)للأشكال ذات الأحجام المتفاوتة من جرار، و قدور، و الجرار الكبيرة المعروفة بالمنطقة "بأكوفي".

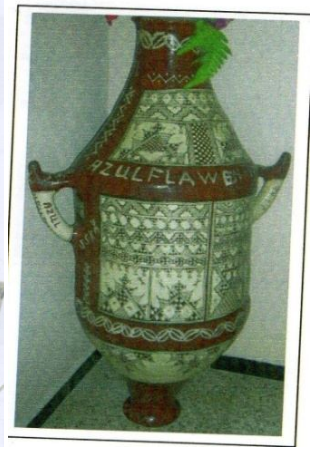

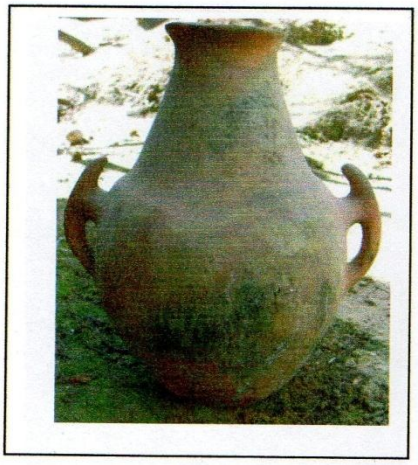

أما الأحجام الصغيرة فكانت تشكل بواسطة صفائح من العجينة مثل السلطانيات، و الأطباق، و الأقداح و غيرها من الأواني ذات الاستعمال اليومي.

لاحظنا من خلال الدراسة الميدانية، أن المرأة بالمنطقة، تضع العجينة على دعامة إما من الخشب أو الطين، ليتم تشكيل الإناء ثم تملس جدرانه. يرى كمبس (Camps)من خلال أبحاثه في ما قبل التاريخ، أن إنسان هذه الفترة كان يستعمل نفس الطريقة لتشكيل آنيته بالإضافة إلى مادة الفلين أو فضلات الأبقار بعد تحضيرها لتصلح للاستعمال كدعامة.[١]

و كان لكل إناء دعامة حتى يجف في انتظار عملية الحرق أو التسوية، و كانت توضع على مساحة الدعامة كمية من الرمل أو قطعة قماش أو حصير حتى يسهل تنحية القطعة بعد تشكيلها بطريقة الحبال الطينية، ثم توضع فوق بعضها البعض حسب شكل الإناء و تلحم بالضغط بواسطة اليدين المبلولتين بالطينة السائلة أو الباربوتين "barbotine".ثم تترك لتجف في الهواء.و حسب Van Gennep أن هذه الطريقة في تشكيل الآنية، كانت منتشرة عند إنسان ما قبل التاريخ في شمال إفريقيا.[٢]

[1] Camps (G), Monuments et rites funéraires protohistoriques, Paris, 1961, p 233 .
[2] Van Gennep (A), » Etude d'ethnographie Algérienne,IV Les poteries Kabyles » tirage à part ,in revue d'ethnographie et de sociologie, 1911,PP 19-24.

مراحل تشكيل الآنية الفخارية من طرف السيدة وردية بمنطقة معاتقة(تيزي وزو).

أما تقنية الشرائح، فكانت العجينة فيها تحتاج إلى تحضير جيد أي تدعك حتى تصبح خالية من الجيوب الهوائية و صالحة للاستعمال.[٣]

[3] HOFSTED,J.Poterie.Paris.1974.p26

تدوم عملية التجفيف للآنية مدة تتروح من ثلاثة أسابيع إلى شهرين حسب درجات الحرارة الفصلية و أثنائها.

تتم مرحلة وضع البطانة ذات اللون الأحمر و الأبيض لتغطية لون العجينة من جهة، و للزخرفة من جهة أخرى. ثم تليها مرحلة التهذيب بواسطة قطعة من الحجر الأملس[٤]،أو صدفة أو قواقع، و قطعة من الفلين إلى أن يصبح الإناء ذا مساحة ملساء صالحة لتنفيذ الزخرفة.يؤكد Van Gennep أن نفس هذه الأدوات كانت تستعمل في فترة ما قبل التاريخ بشمال إفريقيا.[٥]

وعندما تنتهي الحرفية من تشكيل، و تجفيف، و تهذيب، و تمليس الإناء، تأتي مرحلة الحرق التي كانت تأتي بعد مرحلة التي كانت تتزامن مع فترة الحصادو هذه العادة سارية المفعول.

كانت تتم هذه العملية في مواقد مفتوحة منها على شكل الحفرة، و منها المكشوفة التي كانت أكثر استعمالا في منطقة معاتقة.

كانت توضع في الحفرة طبقة من مواد الإشعال، ثم ترص الأواني بطريقة خاصة حيث أن الفوهة موجهة نحو الأسفل من جهة، و توضع الآنية حسب حجمها من الأكبر إلى الأصغر من جهة أخرى. و تغطى الأواني بطبقة من أقراص تصنع من فضلات الحيوانات و التبن الجاف، و أوراق التين الشوكي (raquette de figuier de barbarie) و هذه الطبقة تستعمل للحفاظ على درجة حرارة معينة، وهي طريقة كانت مستعملة لحرق الأواني الفخارية في فترة البدائية .[٦]

[4] Marçais,G. L'art musulman .Paris.1962.p115

[5]Van Gennep (A), Recherche sur les poteries peintes d'Afrique du Nord, Harvard AfricanStudies , 1918, P266/

[6]Balfet(H), Les poteries modelées d'Algérie dans les collections du musée du bardo,Alger, 1957, planche IV.

تهيئة الفرن (الموقد المكشوف)

عمليات ترصيص الأوانى فى الفرن

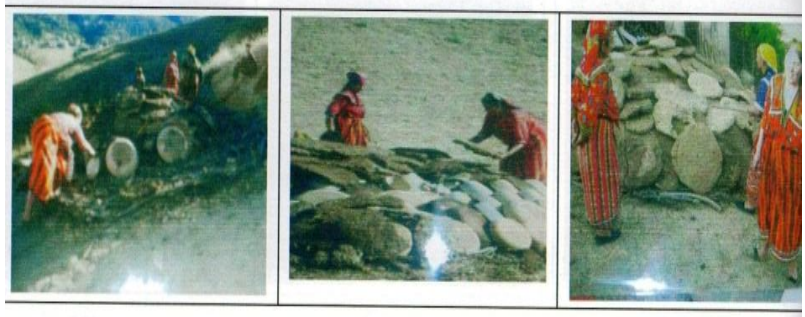

تغطية الأوانى بالمواد العضوية

صورة :المراحل الأولية قبل عملية الحرق(تهيئة الموقد، رصّ الأواني، التغطية بالمواد العضوية).

بعد أن تتم عملية الحرق أو التسوية، تترك الأواني حتى تبرد، ثم تنزع من الموقد أو الحفرة و تصبح بعدها جاهزة للزخرفة بتقنيات و أدوات مختلفة.

عملية الحرق

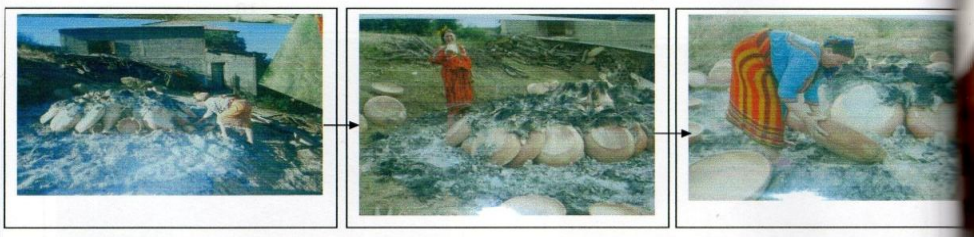

الانتهاء من عملية الحرق

رص الأواني في المخزن | نزع الأواني من الفرن

صورة : مراحل حرق الآنية الفخارية من طرف السيدة وردية (معاقة).

أما عن الزخرفق فقد استعملت فيها تقنيات عديدة منها:

تقنيةالحز،والكشط:

تتم بواسطة آلة حادة مصنوعة من قطعة خشبية، أو عظام، أو قصب على شكل قلم لإحداث خدش على جدار الإناء.

تقنية الزخرفة بالإضافة:

تنجز بواسطة خيوط رفيعة من العجينة الطينية، تضاف إلى جدار الإناء بواسطة ضغط إبهام اليد، محدثة بذلك فصوصاً زخرفية بارزة أو عناصر هندسية، كالخطوط المنكسرة، أو المتموجة،أو المستقيمة، و تنتهي هذه العملية، بإلصاق الخيوط بواسطة الطينة السائلة أو الباربوتين، كما تنفذ عن طريق الضغط بالأصابع، قبل عملية التجفيف على حافة جدار الإناء.

تقنية الزخرفة بالفرشاة:

شاع استعمالها على فخاريات منطقة معاتقة و المناطق الريفية. تحتاج هذه التقنية إلى مواد ملونة كانت تستخرج من الأحجار، أو الطينات ذات الألوان المختلفة منها التي تحتوي على كمية من الحديد الذي كان يعطي اللون الأحمر بدرجاته و كذلك التي تحتوي على كمية من المنغنيز الذي يعطي اللون البني بدرجاته[٧]،لهذا كان يغلب اللون الأحمر و البني الداكن على المشغولات الفخارية في هذه المناطق[٨].

كانت الأواني تدهن بعد زخرفتها بالفرشاة و المواد الطبيعية الملونة، بمادة من شجر الصنوبر المعروفة ب"راتينج الصنوبر" الذي يكسبها لمعاناً. لكن هذه المواد استبدلت بمواد كيميائية نظرا لتكلفة الدهان الطبيعي.كما أصبحت تستعمل الألوان الاصطناعية للزخرفة.

كانت تنفذ هذه الزخرفة بواسطة فرشاة مصنوعة من شعر الماعز،أو البقر، أو الحصان حيث، تجمع كميات من الشعر بواسطة عجينة صلصالية حتى تتمكن الحرفية تنفيذ الزخرفة بالألوان على جدار الإناء باستخدام كمية من الشعر على شكل فرشاة.

---

[7] HANNOTEAUX, A .LETOURNEAU, A. La Kabylie et les coutumes kabyles,T.J,Paris,2003.p424

[8]REMOND, M. Au cœur du pays kabyle.la Kabylie touristique illustrée des année trente .Alger.2001.p 147.

صورة :مراحل الزخرفة من طرف السيدة وردية بمنطقة معاتقة (تيزي وزو).

العناصر الزخرفية:

تعتبر الزخرفة جزء لا يتجزأ من الصناعات الفخارية، حيث أنها تحتوي على حسّ جمالي و روحي من جهة، و رمزية دقيقة تتماشى مع الحياة اليومية للإنسان.فكانت الطبيعة مصدر إلهامه حين بدأ إنسان ما قبل التاريخ يزين مقر معيشته، و كانت الزخرفة بسيطة ثم بدأ بتطويرها مع مرور الزمن إلى أن ظهرت أنواع عديدة من العناصر الزخرفية منها الهندسية، و النباتية، و الحيوانية، و الآدمية و الكتابية. و من هذه المجموعة من العناصر، تكونت المواضيع الزخرفية لإبراز أهم النشاطات السائدة في فترات مختلفة.

لذا نجد أن الحرفية لهذه المنطقة، قد اسقملت سجلاً غني بالعناصر الزخرفية منها الهندسية التي شاعت على القطع الفخارية.

يعتبر الخط سواء أكان مستقيما أو متموجا أو منكسرا، هو أساس الموضوع الزخرفي. فنجد خطين متوازين تنحصر بينهما حسكة (arête de poisson) أو شكل خطوط متموجة(sinosoïde).

كما يحدث تقاطع لخطين متوازيين، وأشكال أخرى،مثل المثلث، والمعين، والمربع أو المستطيل، و كانت مساحة هذه الأشكال تزين على نمط لعبة الشطرنج(damier) بوضع لونين مختلفين متناوبين. و إذا اجتمعت عدّة مثلثات في وضعيات مختلفة، نحصل على شكل صليب معقوف،يشبه الساعة الرملية، التي ترمز إلى الروح التي تصعد إلى السماء بعد الموت، كما ترمز إلى الوقت[9] أو يشبه شكل حلية تسمى الإبزيم يشد به جزءا من ثوب المرأة.

[9]CHEVALIER,J. et CHERBERANT, A. Dictionnaire des symboles, Mythes rênes, coutumes, figure, couleurs et nombre. Paris.1990.p838.

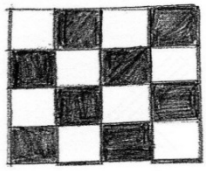

شريط من المربعات.

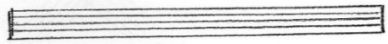

شريط من الخطوط المستقيمة المتوازية.

شريط من الخطوط المنكسرة.

خط منكسر تتخلله نقاط.

شريط من الخطوط المنكسرة والمفصصة.

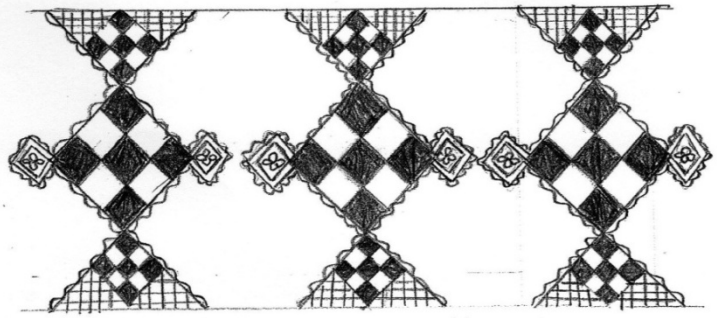

شريط من المعينات والمثلثات

أما العناصر النباتية، نجدها محورة عن الطبيعة و قد احتوت على أغصان، و أوراق بسيطة و مراوح نخيلية و سنابل.

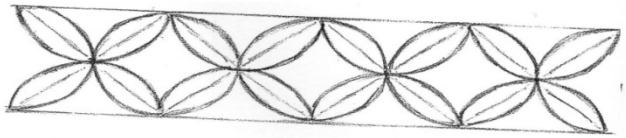

إفريز من الأزهار رباعية الفصوص.

شريط من الأوراق.

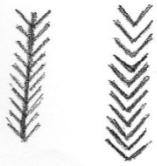

سنابل.

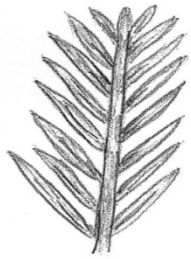

مروحة نخلية

نقاط تشكل زهرة
محورة عن الطبيعة

الزخارف النباتية

أما بالنسبة للعناصر الحيوانية، فتمثلت في الطيور المحورة، و الحرباء التي ترمز عند المجتمع الريفي إلى إبعاد الأذى و الحسد و العين عن أهل البيت.
رسمت النجمة على شكل خطوط متقاطعة، منها خطين أو ثلاثة أو أربعة في محور واحد لتصبح نجمة رباعية، أو سداسية، أو ثمانية الرؤوس.
كانت الأشكال التي تصنع في المناطق الريفية لتلبية حاجيتهم اليومية و لأغراض مختلفة.
إن شكل و حجم الإناء يتوقف على غرض استعماله في الحياة اليومية منها أواني للشرب مثل: القلل، و الأقداح، و الجرار، و أواني للطهي مثل: القدور بأحجام مختلفة

و الطاجين لطهي الخبز، و أواني لتخزين الحبوب و الزيوت و غيرها مثل: الجرار ذات الأحجام الكبيرة المعروفة ب"إكوفان" (silo)الذي كان يشكل في ركن من أركان البيت بواسطة الأحبال الطينية(Colombin) لحفظ الحبوب و غيرها من المواد الجافة.

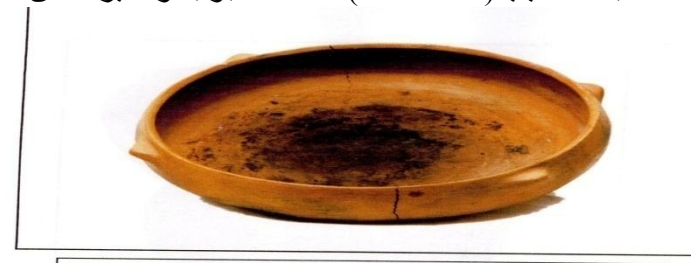

: اناء تحضير و طهي الخبز

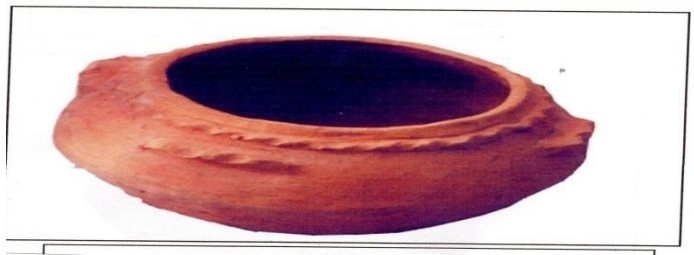

: قدر

و من التحف التي كانت تصنعها المرأة بمنطقة تيزي وزو، المصابيح الزيتية و الشمعدانات ذات أشكال مختلفة. نلاحظ أن البعض من الأواني مثل السلطانيات أو ما يسمى باللغة المحلية "المثرد" كان يستعمل في المناسبات الدينية و الأفراح، و توضع فيه حنة العروس. و من عادات المنطقة أيضا، وضع المصباح على ارتفاع فوق رأس العروس لمعرفة مدى صمود العلاقة ما بين الزوج و الزوجة و مدى صمود شعلة الفتيل أمام الهواء.

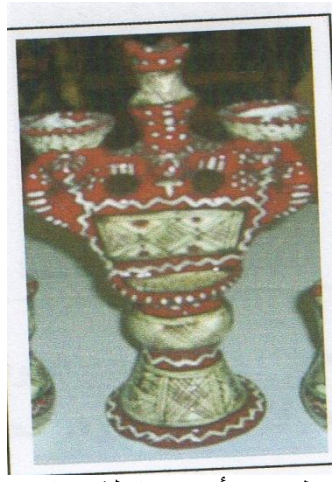

كما استعملت هذه الأواني لوظائف أخرى كالشعوذة، و هناك ما كان يوضع داخل الأضرحة و على القبور، و هي عادة بدائية كانت منتشرة في شمال إفريقيا حيث وجدت كميات كبيرة من هذه القطع على أشكال مختلفة ذات أحجام صغيرة مخصصة لأغراض جنائزية[١٠].

يتبين لنا مما سبق، أن هذه الصناعة متوارثة و متأصلة و مستمرة عبر الأجيال، علما أن كل مراحل تحضير هذه الآنية، مرتبطة ارتباطا وثيقا بالصناعات الفخارية القديمة. الدليل على استمراريتها هي تلك التظاهرات الثقافية الخاصة بالصناعات الفخارية بمختلف أشكالها، و أنواعها، و أحجامها، و زخرفتها، و ألوانها التي لازالت تبرز عراقة هذه الصناعة بالجزائر عامة و بمنطقة معاتقة خاصة.

[10] Camps(G), Les monuments……, p 231.